تيمة الطفولة وفينومينولوجيا الهوية في رواية "أطفال بورقيبة"

للروائي حسن بن عثمان

Tema childhood phenomenology of identity in the novel " Children of Bourguiba" novelist Hassan bin Osman

د. يوسف عطية. جامعة العربي التبسي - تبسة -

youcefattia01@gmail.com

ملخّص:

أهم ما يميز اهتمامنا بالطفولة في هذا المقال هو مقاربة موضوع الطفولة مقاربة تيماتية فينومينولوجية، باعتبار الطفولة فكرة مهيمنة وملحة على مستوى الوعي المبدع في رواية "أطفال بورقيبة" للروائي التونسي "حسن بن عثمان"، ومن هنا يهدف هذا المقال إلى استكناه الرؤية للطفولة، لا باعتبارها موضوعا محايثا، بل باعتبارها ظاهرة قصدها الوعي واستبطنها، وبذلك نستهدف تفسير هيمنة تيمة الطفولة على مستوى الوعي المبدع، انطلاقا من تفسير العلاقة الفينومينولوجية بين الذات (الوعي) والموضوع (الطفولة)، وانطلاقا من تفسير الرؤية الواعية إزاء الطفولة، وتفسير كيفيات تحويل هذه الطفولة من موضوع خارج اهتمام الوعي إلى ظاهرة داخل الوعي لها مميزاتها وبصمتها الخاصة، بغية أن تحيلنا تلك التفسيرات إلى رصد تحولات الوعي بالطفولة، وإلى اكتناه المحتوى الفينومينولوجي لهوية "هلال الأحد" في رواية "أطفال بورقيبة"، باعتبار هذه الهوية مرتبطة كل الارتباط بمحتوى الرؤية الواعية للطفولة، وبمحتوى تحولات وعي الذات بالطفولة.

كلمات المفاتيح: هوية - فينومينولوجيا - طفولة - تيمة

Résumé

Dans cet essai, ce qui caractérise notre intérêt à l'enfance, c'est l'approche thématique et phénoménologique. En effet, l'enfance est l'idée dominante au niveau de la conscience créative dans le roman "Les enfants de Bourguiba", du romancier tunisien "Hassane ben Athmane". Pour cela, cet essai vise surtout l'enfance, en tant que phénomène ciblé par la conscience.

Ainsi, nous visons l'interprétation de la dominance du thème de l'enfance à partir de l'interprétation de la relation phénoménologique entre la conscience et le sujet et de celle de la vision consciente de l'enfance et des moyens qui la transforment d'un sujet sans intérêt en phénomène ayant sa caractéristique et sa propre empreinte.

Ces interprétations nous orientent vers l'observation des transformations de la conscience à l'égard de l'enfance et la distinction du contenu phénoménologique de l'identité de "Hilal El Ahad" strictement reliée au contenu de la vision consciente de l'enfance et celui de ses transformations.

les mots clés: *identité - Phénoménologie - enfance - thème*

مقدّمة:

وصف الهوية من حيث تجلياتها السطحية يوقع في شرك الممارسة النقدية المحلة، لأنه لا يقدم مبررات كافية لأنطولوجيا الهوية بأبعادها المعقدة وتعلاتها المتشعبة، أما البحث في الهوية من خلال رصد العلاقات الإنتاجية فيتيح فرصة إعادة صياغة القوانين التي أسست الهوية، على اعتبار أن هوية طفل رواية أطفال بورقيبة في النهاية هي تلك العلاقات الإنتاجية والقوانين الفينومينولوجية التي تنوس بين البداية والنهاية عبر امتداد زمني معين. والمقصود بالبداية هو ماهية العلاقات الأولى التي تنتج الطفولة، أما المقصود بالنهاية فهو ماهية العلاقات المتأخرة التي تعيد إنتاج الطفولة وتؤهلها، وبذلك لا مجال يدعو للشك في أن مرحلة الطفولة محورية لبناء الشخصية والتحكم في نمط تكوينها وتحقيق ماهيتها وهويتها: «هذه الطفولة الدائمة المستمرة»[1] ويمكن توضيح مسارات استمرارية الطفولة وفق علاقات البداية وعلاقات النهاية كما يلي:

علاقات البداية ← الطفولة → علاقات النهاية

علاقات البداية متباينة كالعلاقات البيولوجية والاجتماعية والغيرية، وغيرها من العلاقات التي تنتج هوية الطفولة، وهي هوية تحتاج لتأهيل فينومينولوجي، حيث تبقى فيها كثير من الفجوات والدلالات الغامضة، وبعد مرور مرحلة الطفولة بمستويات الهوية الأولى يعود الإنسان - بعد مرحلة الطفولة - عن طريق صيرورة علاقات النهاية لتلك الطفولة ليؤهلها ويعيد إنتاج بعض دلالاتها وتفاصيلها، ولذلك ليست هوية الطفل هي علاقات البداية المرتبطة بالماضي فقط أو هي علاقات النهاية المرتبطة بالمستقبل فقط، بل هي التقاء علاقات البداية بعلاقات النهاية، والتقاء علاقات الماضي بعلاقات المستقبل على مستوى وعي الذات «على اعتبار أن الشخصية تتحدد بتأويل الماضي والمستقبل في وعي الذات»[2]. كما أن صيرورة هذه العلاقات الفينومينولوجية ليست في اتجاه واحد بل هي عكسية، ومن هنا تتوخى هذه الدراسة رصد تلك العلاقات الفينومينولوجية التي تضبط القوانين التيماتية على مستوى الوعي، ذلك أن التيمة تستلهم مفهومها من الرؤية الفلسفية الفينومينولوجية التي تعتقد بضرورة رصد الموضوعات وقد تحولت إلى ظواهر حين يستبطنها الوعي، وبذلك تهتم الفينومينولوجيا بالظواهر وقد قصدها الوعي وارتبط بها «أي بتحليل الوعي وقد استبطن الأشياء فتحولت إلى ظواهر»[3] فتضع العالم الخارجي بين قوسين وتؤجل دراسة

الموضوعات التي لم يقصدها الوعي ولم يرتبط بها إلى حين توفر فكرة القصدية، وبهذا تستبعد الفينومينولوجيا كل الأحكام التاريخية وكل ما هو خارج نطاق قصدية الوعي وتصفه بالعدمية و«هذا يعني أن كل مفارق كل ما ليس معطى بالنسبة إلي بنحو محايث يجب أن يوصم بأمارة العدم»[4].

1 - علاقات البداية:

سننطلق من فرضية أن علاقات البداية هي علاقات محايثة عن وعي الطفل، وهي في الآن نفسه علاقات تتسم بكثير من الصيرورات الحتمية، على اعتبار أن الطفل – مثلا - لا دخل له في وجوده الجنيني، ولا يمكنه أن يختار والديه أو يختار اسمه أو ملامحه الجسدية. قد يمكّنه الأنا الغريزي من ممارسة بعض الأفعال التحررية، لكنها في النهاية حرية مصفودة، مما يجعل الهوية في البداية تنتجها علاقات فوقية تتجاوز فرضية الإنتاج الذاتي ولذلك سنحاول أن نبدأ من حيث تمكننا المعطيات السردية من البداية، لأن الدراسة يجب أن تتوخى هوية الطفل في رواية "أطفال بورقيبة"، ولا تتوخى هوية أي طفل آخر وذلك مراعاة لخصوصية الوعي الروائي الذي يفرض تقبل النتائج مهما كانت شاذة أو متناقضة، ولذلك تتيح لنا الرواية فرصة دراسة علاقات البداية عن طريق تحديد بعض المستويات، والمعيار في اختيار تلك المستويات هو الهيمنة الدلالية والإلحاح التيماتي.

1-1- مستوى التأسيس البيولوجي:

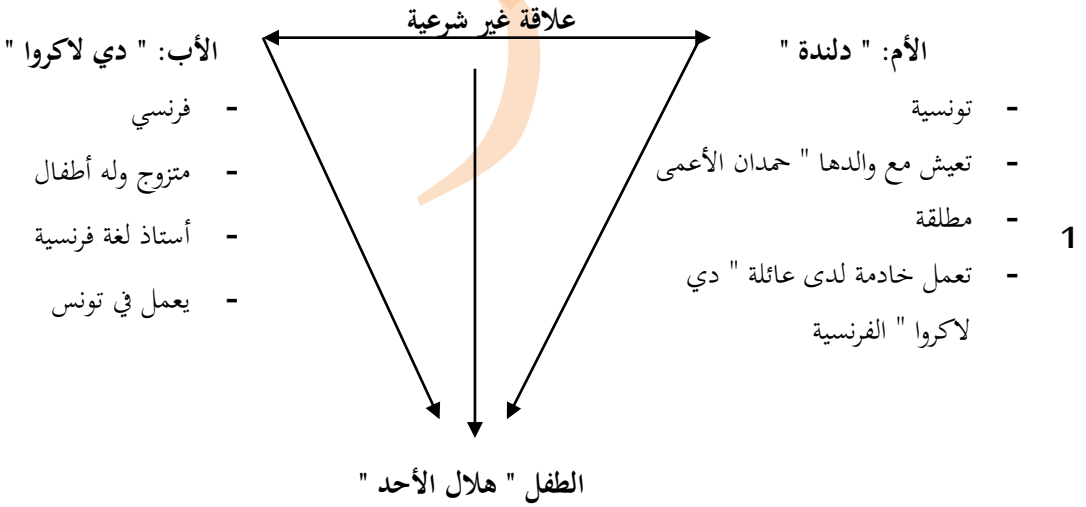

-2- مستوى الرؤية الفينومينولوجية للطفل:

- **الأم:**

لا تومئ الرواية إلى تخطيط مسبق من الأم للإنجاب، بل الأمر عندها غير متوقع وفجأة تحيلنا الرواية على رؤية لهذا الطفل الجنين، حيث يوضح الوعي المبدع أن الأم قررت الاحتفاظ بالجنين، وذلك تعبيرا منها على مدى ولعها وشغفها بعشيقها، وكأنه برهان ملموس لهيامها به، فلطالما أعجبها "دي لاكروا" إلى درجة الغواية، وفتنتها صفاته الخلقية والخلقية، ولم يهمها الجنين في حد ذاته، لأننا لا نلفي أي مشاعر ظاهرة أو علامات اهتمام بائنة تجاه هذا الجنين، وما نلفيه من مؤشرات لا تحيل إلا على نوع من اللامبالاة وعدم الاكتراث، إلى درجة أن الأم كانت تضطر للنوم على بطنها حتى لا يظهر الجنين للعيان، وعندما أنجبت ارتبكت في اختيار اسمه، وبعد يومين اتجهت مباشرة للملجأ وسلمته دون وجل أو ارتباك أو غصة، وكلها مؤشرات تومئ إلى ضعف مستويات التواصل العاطفي مع الجنين، وتبين مدى استعداد الأم للاستغناء عن هذا الجنين منذ البداية.

- **الأب:**

طبعا "دي لاكرو" لم يخطط هو أيضا للإنجاب مع "دلندة"، لكنه لم يجبرها على الإجهاض، وبدا يتلذذ بهذا الوجود الجنيني، حيث تصف الرواية أن البطن المنتفخ بعروق الدم يدهشه ويغريه، لكن هذا المشهد الإغرائي لطالما كان جذوة للشبق حين ينتهي بممارسة الجنس وحمى الانفعال الإيروسي، وما يهمنا أكثر هو أن "دي لاكرو" وهو يتلذذ بجغرافيا تضاريس البطن يقيم حوارا مع الجنين، نستوعب من خلاله الرؤية الظاهراتية لهذا الجنين وفحوى الخطاب الأبوي هنا يتمحور حول استحضار أبيات شعرية للشاعر "جبران خليل جبران" يتحدث فيها عن الأطفال، ومغزى هذه الأبيات يتمركز حول ضرورة استقلالية الطفل عن والديه، ولذلك نعي أن "دي لاكرو" منذ البداية يتبنى فلسفة تروّج لضرورة منح هذا الطفل فرصة للاستقلال واليتم منذ البداية، وما يؤكد ذلك أن "دي لاكروا" هو من قدم كل التوجيهات للأم "دلندة" بخصوص المستشفى والملجأ والقوانين وشجعها بذلك على التخلص من الطفل.

مما سبق يثبت تواطؤ بين الأم والأب على المعطيات التالية: (حمل غير متوقع - الاستغناء التام عن الطفل) والحقيقة أن الظروف التي هيأت لفكرة اللقيط ليست العلاقة غير الشرعية في حد ذاتها، لأن العلاقة غير الشرعية كان يمكن أن تتجنب الحمل غير المتوقع بل المناخ الذي أتاح لهذا الجنين فرصة الظهور هو المناخ الذي هيّأ لفكرة اللقيط ولعل هذا المناخ هو القانون البورقيبي الذي يسّر كل السبل والإجراءات وذلل كل الصعوبات، فلو كان هناك قانون رادع لتوقعنا نتيجة أخرى، فحتى لو كانت الأم لا حول ولا قوة لها، فالأب أستاذ وفرنسي مثقف يمكنه تجنب الحمل كما يمكنه تدبر أمر الإجهاض من البداية تجنبا للمضايقات القانونية، ومادام القانون الرادع معدوما لم يساور الوالدين أي قلق أو خوف. وفي سياق التأويلات السابقة تتسع دائرة العلاقة التواطئية لتتحول من علاقة ثنائية بين الأم والأب إلى علاقة ثلاثية بين الأب والأم والقانون.

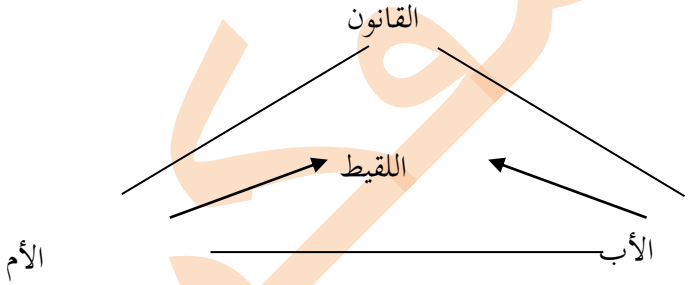

هذه العلاقة الثلاثية يغذيها ويصونها القانون عن طريق تبني فكرة المسؤولية وتحمل عبء الأبوة والأمومة معا، وإعفاء الأب الحقيقي والأم الحقيقية، ليجسد كل ذلك في النهاية الملجأ الذي تتكفل به الدولة التي هي القانون، والقانون هو "بورقيبة"، ولذلك تتحول الأبوة من أبوة بيولوجية إلى أبوة قانونية تسعى لتحصين نفسها وإضفاء الشرعية والخلود حين هيأت هذه الأبوة القانونية المناخ المناسب للتواصل البيولوجي غير المشروع وحولته إلى مشروع عن طريق التحايل السياسي، ولعل ذلك يوعز إلى أن الأبوة القانونية لا يمكن أن تحقق هويتها وتحولاتها وشرعيتها بالاعتماد على تشجيع التواصل البيولوجي المشروع، فقنّنت هذا التواصل وقلصته وحددته لأنه يهدد شرعيتها، وبالمقابل أبدت استعدادا تاما لرعاية اللقطاء وهو تشجيع غير مباشر للتواصل البيولوجي غير المشروع فالمشروع في هذا السياق

ملك لصاحبه أما غير المشروع فهو ملك للدولة، ولهذا استوعب "دي لاكرو" هذه الحقيقة منذ البداية وكان وفيا لمشروع الدولة. مرشدا "دلندة" الأم إلى الإجراءات القانونية السليمة التي تتيح تسليم الابن إلى الأب القانوني "بورقيبة"، حيث تعتبر الأم في هذه الحالة وكأنها أم مستأجرة والأب كذلك، استأجرهما القانون البورقيبي لتأدية الوظيفة البيولوجية، وأجزل لهما بالمقابل العطايا والتسهيلات القانونية، ويسّر لهما الإجراءات ووضحها، ولعل ذلك محاولة جادة للتخلص من سلطة الأبوة الشرعية التي تنافس سلطة الدولة، فكان ضروريا إقصاء هذه السلطة وتجريدها من قوتها وروابطها وإفراغها من محتوى المعارضة، وتحويلها إلى أبوة غير شرعية ييسر ترويضها وتدجينها، والطفل عندما تنكّر له الرحم البيولوجي احتضنه الرحم القانوني الذي خطط لضرورة أن يجهل الطفل الأبوة البيولوجية وأن يناصبها العداء، وأن يعي الأبوة القانونية ويمتن لها ويفي لها، كما خططت الأبوة القانونية لضرورة أن يجهل الطفل تاريخ المؤامرة القانونية ومسرحة الأحداث، وأن يعتقد دائما ببطولة هذه الأبوة التي انتشلته من الضياع ويعتز لكونه طفلا من أطفال بورقيبة، أو على الأقل يرضخ لهذه الإرادة الأبوية من حيث لا يدري.

من جهة أخرى يعرف عن "بورقيبة" رغبته العظيمة في تأسيس دولة وفق معايير الرقي والتحضر والتمدن، فقد «حرص بورقيبة على تحديث تونس ونجح في هذا الهدف الذي شكل أحد الثوابت الهامة في حياته»[5]، وهذه الرغبة العظيمة في التحديث لا يمكن أن تتحقق إلا إذا تحول الشعب من فكرة الولاء للتعصب القبلي إلى فكرة الولاء لأفكار الرئيس الحداثية والتعصب لها والإيمان بها، لذلك تمكّن فكرة الأبوة القانونية من هذا التحول لأن القبيلة بالدرجة الأولى هي روابط دموية، ولتفكيكها يجدر تفكيك هذه الروابط الدموية، بل والقضاء عليها، ولعل أخبث طريقة لذلك هي التخلص من الأبوة الدموية وإنتاج فرد دستوري لا يؤمن إلا بالذات وبالمرجعيات القانونية، ولا يؤمن بالانتماء القبلي وبفكرة العشيرة لأنها ليست موجودة بالنسبة له.

لكي يكون هذا التخطيط مشروعيا لا يثير الخيبة أو الفتنة عززه "بورقيبة" بالإباحة المطلقة للتبني، ضاربا الأحكام الدينية عرض الحائط، وهذه الخطوة بمثابة القضاء النهائي على تاريخ الأبوة الدموية وإبادة كل محاولات الانتماء أو الثورة، حيث إن كل حقوق الطفل المتبنى هي نفسها الحقوق القانونية لطفل له روابطه الدموية الشرعية، وكل ذلك يشجع على

التبني، ويشجع على العلاقات غير الدينية، لأن الطفل غير الشرعي في النهاية أثبت الواقع الروائي أنه يحظى بحياة قد تكون أفضل من حياة الطفل الشرعي، وهذه الحياة ستعزز ثقة الطفل في النظام الذي تحمل مسؤولية رعايته كاملة وأباح له ما لذ وطاب، ومن جهة أخرى يشجع هذا النظام التبني ويوهم بإمكانية أن تكون أبا أو أما متى أردت، وأن تختار من أردت، حيث اختار "صالح" طفلا وسيما قد لا ينجب مثله لو كان ينجب.

إن التبني يمنح الأبوة المجازية حرية الاختيار والانتقاء، وهي في كل ذلك – الأبوة المجازية - مدينة للنظام الذي أتاح لها كل هذا النعيم، وستعبده صباحا ومساء وفية له كل الوفاء، وما يثبت أيضا مشروع "بورقيبة" للقضاء على القبيلة وعلى الروابط الدموية، وتحقيق فكرة الذات والمواطنة والوفاء للقانون هو أن القانون البورقيبي بعد كل التسهيلات السابقة منح إمكانية أيضا لتغيير الألقاب، وقد يكون الأمر عاديا في البداية ولكن غير العادي في الرواية هو أن العائلة التي تبنت الطفل "هلال الأحد" كان لقبها "الكسكس"، ونظرا لما يثيره لقب "الكسكس" عند المتبني "صالح" من معان وضيعة رفع دعوة قضائية لتغيير اللقب، وكان أن غيّر لقبه من "الكسكس" إلى "الأحد" لقب الطفل "هلال"، وهذه المعطيات تحيلنا على أبعاد رمزية، حيث من المفروض أن "هلال" هو الذي يتغير لقبه إلى "الكسكس" لقب العائلة - وهي عائلة كبيرة لها أقارب كثيرون ومكانة اجتماعية هامة – لكن ما حدث هو العكس، ولعل هذا التناقض الصارخ يرمز إلى سلطة هذا اللقيط مشروع الدولة الفتية البورقيبية الذي يجب أن تتأسس الدولة الفتية البورقيبية عليه لا على القبيلة وعلى الروابط الدموية وصلات القرابة، إلى درجة أن القانون منحه قوة تجريد عائلة كاملة من لقبها وانتمائها، وخلع عليها لقبا جديدا هو الدولة البورقيبية الجديدة، ومحا وجود الجد البيولوجي مستوليا على عرشه وصولجانه، وذلك كله حدث والطفل "هلال الأحد" لم يتجاوز من العمر سنتين، طفل بهذه القوة الجبارة لا يمكن أن يستمد مشروعيته وقوته إلا من الدولة، وهي تصنعه أيضا من أجل أن تستمد منه شرعيتها وقوتها.

2-1- مستوى رمزية الجسد:

تصور الرواية الطفل "هلال" وسيما متميزا في وسامته، وهذا يحيلنا على عدة تأويلات لعل أقمنها بالذكر أن هذا التميز يرمز إلى الجيل البورقيبي الجديد الذي ينتجه بغية بناء الدولة الجديدة بمعاييرها الحضارية المتميزة، ولعل هذا الجيل البورقيبي الجديد لن يأتي عن طريق الاستمرارية، بل العقيدة البورقيبية تتبنى فكرة القطيعة التي تستلزم القضاء على السلالات الشعبية القديمة وإنتاج سلالات جديدة بمعيار كرموزي جديد يمنحها القدرة على أن تكون في مستوى الخطاب الحداثي ومستوى استيعاب قيم الدولة الجديدة، إنه استنساخ جيني جديد يتغلب على المثبطات والتشوهات الوراثية، وملحد بالهوية الإثنوغرافية، ولعل التفاصيل الجسدية للطفل لا تحيل على الهيأة التونسية، بقدر ما تحيل على هوية الآخر الأوربي (الفرنسي) فلم يحدث أن تحدث الوعي المبدع على صفة جسدية واحدة ورثها الطفل عن أمه، بل الطفل يشبه فقط كل الشبه والده، وليس الأمر من محض الصدفة السردية كون الطفل منذ البداية مشروع نظام، وهذا النظام يتوخى إعادة تأثيث الدولة بجمهور جديد صفاته في النهاية ليست تونسية بل هي غربية بكل تفاصيلها الفلسفية والفكرية والمادية، ولعل استحضار جسد الآخر هو رمز يحيل إلى استحضار حضارة الآخر، وهذا أيضا يبين عودة الإمبريالية في سياق ما بعد الكولونيالية عبر تجليات مختلفة لعل أخطرها الجنس، فليس بالصدفة أن يكون والد الطفل فرنسي لا يستعمل هذه المرة سجونه ودباباته وطائراته بل يستعمل فحولته الجنسية، لا لكي يقتل ويذبح ويحارب الثوار، وإنما ليخلق بديلا عن كل هؤلاء، ويبذر نسله بكل وداعة ورحمة وحب ونشوة، وهذا أيضا يبين أن الآخر لم يحقق ذلك إلا عندما توفر له المناخ الملائم الذي وفره القانون، حين أبقى على بعض الفرنسيين المدنيين ووفر لهم الحماية، ووفر لهم الأم التونسية – بكل رمزياتها - خادمة، بل وأوكل لهم مهمة تعليم التونسيين، وفي النهاية تحمّل هذا القانون نتائج نزواتهم الجنسية، واضطلع برعاية نسلهم كنوع من أنواع مباركة تفوقهم الحضاري الذي تغلغل في عمق الوعي السياسي، لكن لكي يحقق النظام البورقيبي بعض الاستقلالية الحضارية التي تمنحه السلطة كان لابد أن يتنازل "دي لاكروا" عن الطفل بعد أن استعين به لخلق جيل جديدة، وكان لابد أن يختفي "دي لاكروا" من حياة الطفل، وكأنها صفقة بين الآخر والنظام، يبدو جليا أن كلاهما استفاد منها. على أن المثير للانتباه أيضا - من حيث البعد الرمزي - هو أن لون عيني الطفل أزرق، وعينا والده كذلك، ولون عيني "بورقيبة" أزرق أيضا، والبصر من أهم

الحواس التي يمكن أن تحيل إلى الرؤية الفكرية، فهي رؤية ثلاثية تؤسس لعلاقات رؤية الدولة الجديدة، وهي علاقات معقدة يعسر تحديد المستفيد الأكبر منها، ولعلها رؤية تحيل إلى تأسيس دولة بورقيبية بعيون زرقاء غربية (بروح غربية) «عن طريق التعاون الوثيق مع الغرب صاحب الحداثة والتكنولوجيا»[6] أو تحيل إلى تأسيس دولة هي في الحقيقة امتداد للدولة الأوربية وقد تحيل تلك الرؤية إلى استقلال حققه "بورقيبة" عن طريق الاستفادة من الاستعمار نفسه، أو هي رؤية تعكس السيطرة الإمبريالية بأقنعتها الجديدة.

3-1- المستوى الاجتماعي و أنماط الحماية:

رغم أن الطفل "هلال" ابن بالتبني إلا أنه بلغ سن العشرين عاما، ولم تصادفه في غضون تلك المرحلة العمرية مضايقات غيرية واجتماعية، فقد أخذه "صالح" من الملجأ وأغدق عليه كل ألوان النعيم والمحبة، بل وتبنى لقبه وفرضه على كل العائلة الكبيرة و"صالح" هنا يمثل النظام فهو رئيس الحرس، وهو النموذج التربوي الذي اضطلع بتدريب "هلال" في الميدان، وكل التدريبات - مهما تباينت أشكالها - تتوخى دائما تمجيد النظام والوفاء له، والترويج لمشروع الدولة الجديدة، يقول "صالح" مخاطبا "هلال": «لا أنت ابني ولا أنا أعرفك إن أنت اتبعت شراذم المفسدين اليساريين...بورقيبة أبوهم الذي حرر البلاد والعباد..»[7] أما موقف المجتمع من الطفل "هلال" فهو موقف يتسم بالحيرة التي تحيلنا على أن الشعب مازال في سبات لم يتفطن للمشروع الجديد، وأن النظام يكرس هذا السبات ويردع كل محاولة من محاولات الوعي، ويتجلى هذا الردع في الرواية على مستوى مؤشرين هامين؛ أما الأول فهو أن المجتمع التونسي لفتت انتباهه سحنة الطفل ووسامته وتميزه عن الناس «فيشكون في نسبته لسي صالح»[8] لكنهم رغم ذلك « لم يكن أحد ليجرأ على إبداء ملاحظات أو تقول في هذا الشأن»[9] لأنهم لا يجرؤون على مواجهة "سي صالح" الذي يمثل النظام في النهاية، وأما الثاني فهو أن لـ "صالح" أخا سكيرا منحرفا استغل فرصة موت أخيه "صالح" واعتقد أن بإمكانه السيطرة على الميراث لأن أخاه "صالح" عقيم، وقد حاول هذا الأخ

السكير مواجهة "هلال" بالحقيقة بعد موت أخيه، ثم يغادر الأخ وتبين لنا - فيما بعد - المسارات السردية أن "هلال" ورث كل شيء لأن القانون حماه ومكّنه من الميراث، ولعل ذلك يعني أن الأخ - الذي قد يمثل المجتمع التونسي في محاولته لاسترجاع ما سلب منه وما يعتقد أنه حق شرعي - قد فشل وانهار وهذا يحيل إلى كون النظام يحمي هذا الطفل دائما ويؤهله شيئا فشيئا ليؤسس جمهور الدولة الجديدة، لذلك حماه بالدرجة الأولى من أعدائه التونسيين (الجمهور القديم) وقمع كل محاولات التمرد أو الثورة، ويمكن تلخيص أنماط الحماية في النقاط التالية:

- الأم لم تطالب بابنها، ولم تفتش عنه يوما، ولم تتأثر بغيابه، بل بدت راضية تماما والنظام يحمي الطفل المشروع بضرورة إقصاء الأم والتبرير ضمنيا لإقصائها (خادمة - جاهلة – فقيرة)

- تيسير كل سبل الحمل (أب "دلندة" الأم كان أعمى) وتيسير عملية الإنجاب في المستشفى وسهولة إجراءات الملجأ.

- الأب مرتبط بأسرته الفرنسية، ومقتنع بضرورة وضع الطفل في ملجأ.

- تيسير فكرة التبني، وتذليل كل الصعاب، وضمان كل حقوق الطفل، إلى حد مخالفة الأحكام الدينية والتضحية بها لحماية هذا الطفل.

- المتبني رئيس لمركز الشرطة لا يجرؤ أحد على التدخل في حياته الشخصية.

- سيطرة اللقب على العائلة، رغم أنه لقب غريب في المجتمع التونسي.

- تفتيت أملاك القبيلة وتجريدها من قوتها المادية (الميراث) ومنح الدخيل قوة ونفوذا.

2 - علاقات النهاية:

2-1- مستوى الرؤية الفينومينولوجية:

منذ أدرك "هلال" حقيقته ونعت باللقيط بدأت مسارات التأهيل الفينومينولوجي والعودة لقراءة الطفولة، وصياغة الموقع الأنطولوجي، وبما أن الصورة الحسية للوالدين تحيل إلى العدمية، فقد كانت محاولات رسم تفاصيل هذه الصورة الحسية معدومة، لذلك فشل الوعي في التواصل مع الوالدين «ذلك أن الصورة نفسها هي أصل للوعي»[10] واستسلم "هلال" للغياب السديمي المدقع، كما باءت كل محاولات تتبع آثار الوالدين ومحاولات الظفر باسم أو عنوان بالفشل أيضا وكان الأمر الوحيد الذي استطاع "هلال" الوصول إليه هو

معرفة المستشفى الذي ولد فيه والملجأ الذي استقبله، وفي الحقيقة لا يمكن التحكم في فعل التخيل، فرغم غياب المرجعيات الواقعية إلا أن فرضية تكوين صورة ما عن الوالدين في رحم الوعي ممكنة جدا، بغض النظر عن طبيعة هذه الصورة المبتكرة التي تنتجها الحياة الشعورية – عادة - إنتاجا رمزيا يحيل على العلاقات الوجدانية واللاشعورية العميقة، وهذه الرمزية هي ما تحوّل غير الممكن وغير المنطقي إلى ممكن ومنطقي، وتحوّل الصورة الحسية إلى صورة معنوية، كأن تكون الأم – مثلا - لونا ما أو ضبابا أو شعرا غائبا في السراب أو أي صورة قد تحيل إلى الأمومة في أبعادها المعنوية والدلالية المعقدة، وليس إلى الأم بوصفها بعدا ماديا وصورة حسية، فالأم في هذه الحالات تتحول إلى حلم ليلي مفعم بالرموز وبالألغاز والعلامات، لكن بالنسبة لـ"هلال" قوّضت كل هذه الاحتمالات وتحكمت في أخيلته القريحة صورة فوتوغرافية واحدة، كلما حاول تخيل صورة والديه لم تدركه الأحلام وأنصاف الأحلام، ولا العلامات والرموز والألغاز والأنغام، بل مباشرة تطفر إلى ذهنه صورة "بورقيبة" « بجبهته الواسعة ورأسه الأصلع، وفمه الواسع وأسنانه المنتظمة البراقة، وعينيه الزرقاوين...»[11] فتحضر بذلك الأبوة القانونية وتؤسس لمشروعيتها داخل الذاكرة في مشروع استيطاني يفرض سلطته على الوعي، ويتحكم في الأخيلة والأحلام وهو نوع من القمع الاستعماري الفتاك الذي يكرس الولاء للسلطة ويستطيع تقنين الأخيلة وترويضها، فالتحكم في الخيال معناه السيطرة على الإنسان، لأن ما يميز جوهر العقل هو الخيال الذي يمكّن الإنسان من التطور والتفرد والاستشراف والتغيير ويمكّنه من التحرر من رباق السكون وقيود الغريزة العمياء، والأهم أنه يمكّنه من الإبداع والثورة والفن والابتكار والتلذذ بالحياة، ويتيح له فرصة التعايش بتعال، وفرصة إعادة إنتاج العالم وإعادة قراءته وتأويله.

كل تلك المعاني السابقة قبرتها الأبوة القانونية وقمعتها، ولم تترك لـ "هلال" إلا كوة واحدة تطل على صورة "بورقيبة" التي كانت التجربة الخيالية الوحيدة التي تستهلكها الذاكرة مرارا وتكرارا، إلى أن «انتهى الأمر بهلال إلى الاقتناع أن بورقيبة هو أبوه الأصلي وهو أمه أيضا»[12] والأبوة هنا ليست نسبة للأب فقط، بل هي أبوة أسطورية تحول فيها الأب "بورقيبة" إلى أب وأم في الآن نفسه، معلنا ناموسا بيولوجيا جديدا يحيل إلى كائن خرافي ابتدعته

الذاكرة السياسية، يكون هذا الكائن ذكرا وأنثى في الوقت نفسه وفي الجسد نفسه ويحبل من تلقاء نفسه، وهو كائن يختصر الذكورة والأنوثة والأبوة والأمومة، ويقصي الأم والأب إقصاء كاملا، محتفيا بوجوده المقدس في الذاكرة والخيال. لذلك غابت صورة الوالدين الافتراضية عند "هلال" ولم يتجاسر خياله على ابتداع رموز تحيل إليها، بل سكنته الصورة الأسطورية والكائن الطوطمي المطلق إلى النهاية.

ما يسّر هذا الافتراس السلطوي هو تأسيسه لعلاقات الخيبة منذ البداية، لذلك يلفي الوعي نفسه مسيجا بمعطيات قاهرة ترسّخ فكرة إقصاء الوالدين الحقيقيين وتبرر لهذا الإقصاء لأن جذوة التأهيل الفينومينولوجي للطفولة عند "هلال" تتوهج من الإلحاح على ضرورة تفسير هوية العلاقة بين الوالدين الحقيقيين لحظة الإنتاج الجنيني، وهذا أعسر تحول فينومينولوجي إزاء الطفولة، وأعسر محاكمة لها في محكمة الوعي، باعتبار المحاكمة في هذا السياق نوعا من التنقيب، وتطورا في مستوى نمو الوعي وتحولات الوعي بالطفولة.

يعتقد "هلال" بعدم شرعية العلاقة بين الوالدين، ويصنفها في خانة الزنا، لكن فلسفة الزنا عنده لا تستمد ماهيتها من الدين، ولا يصفها بالحلال أو الحرام، بل يحاكمها وفق المعايير التالية:

- الزنا ←
  - علاقة نشوة عاطفية ونزق إيروسي
  - علاقة تواطؤ ورغبة متبادلة
  - بين ذكر وأنثى

← علاقة طبيعية

لذلك يعتقد "هلال" أن العلاقة بين الوالدين علاقة طبيعية، مهملا الفتوى الشرعية والرؤية الدينية التي تقنن التواصل الجنسي بواسطة الزواج، وحتى يبرر طبيعة هذه العلاقة اضطر لتقويض فكرة الزواج، وتبنى رؤية صديقه التي تعتبر الزواج مجرد قناع عبثي واهم حيث المرأة منكوحة في كل الحالات، ويبقى الفرق كامنا في كون الزواج توكل فيه الجماعة رجلا وتفوضه، أما خارج الزواج يغيب التوكيل وتدخل الإرادة الفردية: «لا فرق بين أن تنكح الأم من طرف الأب الشرعي الذي أوكلت له المجموعة تلك المهمة، أو ممن لم يتحصل على ذلك التوكيل»[13] فيكون فعل الزنا هنا مجرد خيانة للجماعة وخيانة لفكرة التوكيل وللتقليد البشري، لكنها ليست خيانة للنواميس الطبيعية والأيديولوجيات التحررية، فحتى تتحسن

الحياة لا بد أن يكون هناك استمرار في «ارتكاب المعصية الأزلية وقضم التفاحة حتى يحققا شرف الانتماء إلى الأب الأول والأم الأولى وحتى تظل مشيئة الله تتحقق عبر الأيام والدهور»[14] لكن إذا أنجبا الوالدان غير الشرعيين «عليهما أن لا يهملا الطفل، وأن لا يودعاه مأوى من مآوي أطفال بورقيبة»[15].

لم تكن الإشكالية عند "هلال" في مستوى العلاقة الجنسية الأولى بين الوالدين الحقيقيين والتي تسببت في وجوده، بل تكمن الإشكالية في مستوى العلاقة الثانية بينه وبين والديه، ويمكن توضيح هذه الإشكالية بواسطة البيان الفينومينولوجي التالي:

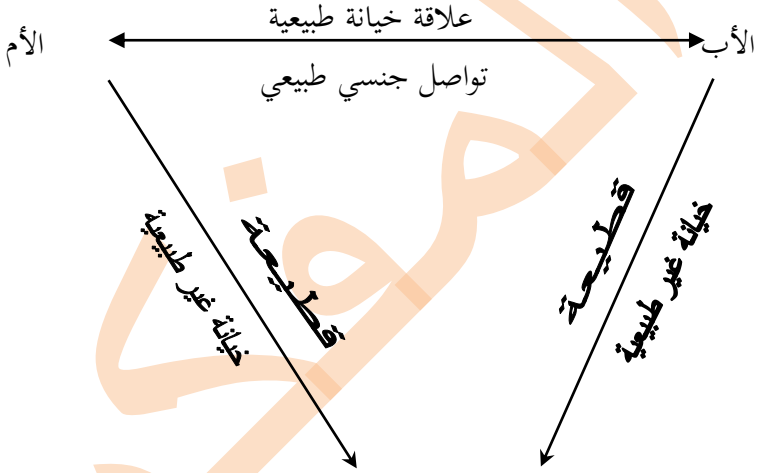

إن "هلال" لم يستطع أن يفهم الطفل هذه القطيعة، وانبرى يفتش عن تفسير لعلاقات الاستغناء غير الطبيعية، فاعتبر تلك العلاقات خيانة أفظع من الأولى، لأن الخيانة الأولى مبررة أما الثانية غير مبررة، ذلك أنه يعتقد أن الحرية التزام ومسؤولية، وعندما انتفى الالتزام في مستوى العلاقة الثانية انتفت مشروعية الحرية في مستوى العلاقة الأولى وكان أن تشوهت فكرة الحرية ودنست وجوده، وحولت هذا الوجود من المشروع طبيعيا إلى غير المشروع، فنجم عن ذلك أن أغمط "هلال" والديه وازدرى وجوده، واستوعب ضرورة تحمل المسؤولية وحيدا، وتصحيح مسار الوجود ومسار مستويات العلاقة الثانية عن طريق محاولات التكفير عن كبوات الوالدين: «كان يتشوق للموت بكيفية يكرم بها نفسه ويزكيها ويطهرها من إثم والديه المنجبين»[16].

إذا كان مستوى العلاقة الأولى مبررا بكونه ناجما عن الطبيعة وعن حتميات التواصل البيولوجي، فإن مستوى العلاقة الثانية (علاقة الاستغناء) غير مبرر وغير منطقي، لأنه يتعارض مع الفطرة ويشوه السليقة، وهذا ما دفع بـ"هلال" للبحث عن تعلات لهذا التشوه والانحراف في الثقافة البشرية، ما دامت الطبيعة لا تبرر هذا التشوه ولا تبرر هذا الشذوذ، وقد ألهمت فكرة الثقافة البشرية "هلال" ضرورة التنقيب عن مستوى التفسير القانوني، وعن موقع "بورقيبة" الأب المزعوم الذي يمثل القانون، وحينها أسهب "هلال" في البحث، وتحول بحثه إلى رصد لماهية العلاقة بينه وبين بورقيبة.

الطفل ← بورقيبة (الأبوة القانونية)

يعتقد المتلقي أن النتيجة التي سيصل إليها "هلال" هي أن علاقة الاستغناء التي انتهجها الوالدان وليدة إيعاز قانوني، حيث الأب القانوني هو الذي قنن لتلك العلاقة وفق صيرورة من التسهيلات التشريعية سلف وأن أومأنا لها في رصدنا لعلاقات البداية، فلو - مثلا – حوّل القانون العلاقات غير الشرعية وما ينجم عنها إلى علاقات شرعية، وأجبر على الاعتراف بالطفل، أو على الأقل كانت الإجراءات القانونية في المستشفى وفي الملجأ تحتم تدوين هوية الأم والتحقق من هويتها، لكان من اليسير على كثير من اللقطاء أن يستوعبوا صلاتهم الدموية. لكن اعتقادنا يخيب لمجرد اكتشافنا أن "هلال" يتغاضى عن كل تلك التأويلات السابقة، ويعفي الأب القانوني من مسؤوليته، ممجّدا "بورقيبة" من حيث إنه تلقف اليتامى والمشردين واللقطاء، وانتشلهم من ضياعهم، واستوعب نكباتهم، وكل ما بدا كرها لبورقيبة وانتقاما منه في البداية تحول إلى اقتناع ومجاملة، حيث كانت مشاعر الكره والانتقام في البداية نابعة من صدمة الانتماء إلى أبوة مشاعة تفتقر لروابط دموية، وليست نابعة من الوعي بخبث البرنامج القانوني، ولذلك كان كره "هلال" لـ"بورقيبة" في البداية كرها انفعاليا غريزيا وليس كرها مؤسسا، وهذا ما جعل "هلال" يستسلم لنسبه البورقيبي ويحول عاطفة الكره إلى عاطفة الامتنان إزاء الأبوة القانونية، وبعد تبرئة الأب القانوني يعود "هلال" لإلقاء اللوم على الوالدين معلنا: « كفى تشردا في الأنساب وسفحا للدماء الساخنة. على الأبوين أن يعترفا بأبوتهما للطفل، وعلى الطفل أن يتعرف على أبويه»[17].

مما سبق ينتج عن مرحلة محاكمة علاقات البداية وفق وعي علاقات النهاية ما يلي:

– تبرير علاقات المستوى الأول التي كانت بين الوالدين الحقيقيين (وهو تبرير للوجود، واعتراف ضمني بوجود الوالدين الحقيقيين، وبوجود الانتماء الدموي).

– إدانة علاقات المستوى الثاني التي كانت بين الوالدين والطفل (وهي دعوة للاعتراف بالأبناء مهما كان نوع العلاقة بين الوالدين).

– تبرير علاقات المستوى الثالث التي كانت بين الطفل والأب القانوني (وهو تبرير لوجود الأبوة القانونية). ويمكن توضيح علاقات البداية وفق وعي علاقات النهاية عن طريق البيان الفينومينولوجي التالي:

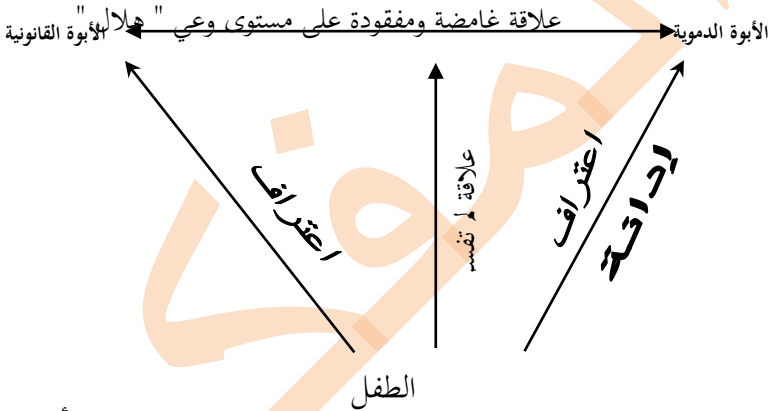

إن البيان الفينومينولوجي السابق يترجم المستويات النهائية لتأهيل الطفولة والوعي بالطفولة، من حيث هي طفولة وقعت ضحية علاقات معقدة، ويفترض بعد هذه الرحلة من التنقيب والبحث والتفسير أن يحظى "هلال" بنوع من الاطمئنان والوعي الإيجابي بالطفولة ذلك أن اكتشاف الحقيقة المزعومة عن الهوية قد يلغي الرؤية السلبية للذات، لكن المؤشر السردي التالي يفند هذه الفرضية ويدحضها، حيث يبدو جليا أن الرؤية للطفولة مازالت سلبية والوعي بالهوية مازال محل التباس، لأن الأبوة نفسها مازالت محل التباس: « إن هلال الأحد مقبل غدا على الستين من عمره، ورغم تلك السنوات الطويلة التي عاشها فإن مسألة الأبوة لديه مازالت محل التباس»[18].

قد يمكننا في النهاية أن نستنتج أن الوعي بالهوية وفق صيرورة المقدمات والنهايات قد أخفق في اكتشاف الهوية التي بقيت محل التباس، كما أخفق في تحديد ماهية هذا الالتباس، لأنه قصد بالالتباس مفهوما سطحيا يحيل على إشكالية الانتماء للأبوة الدموية أو الأبوة القانونية، وهذا تناقض صارخ لأنه وفق ما سبق وتجلى على مستوى البيان الفينومينولوجي انتهى الوعي إلى الاعتراف بالأبوتين، وهذا - في نظرنا – ليس التباسا وليس أزمة هوية، مادام الوعي قد تقبل هاتين الأبوتين وأدرك الفرق بينهما، وكان من المفروض بعد هذا اليقين أن يزول الإحساس بالالتباس، لكن وقع العكس، ومازال الالتباس قائما، مما يفضي إلى كون اليقين الذي وصل إليه "هلال" مشبوها لم يلب فضوله الواعي، ومازال عاجزا لم يستطع أن يبرر هذا الإحساس بالالتباس.

مما يجعلنا نعيد التفتيش عن المعنى الحقيقي للالتباس بالعودة لمراجعة صيرورة العلاقات – مقدمات ونهايات - بغية الظفر بأزمة الهوية في بعدها اللاشعوري، على مستوى الفجوات ومناطق الظل المحظورة، وتلك الدهاليز التي أغفلها الوعي في رحلته الاستقصائية لإعادة تأهيل الطفولة ومحاكمتها، وهناك نلفي أن أزمة الهوية قد نجمت في الحقيقة من عزوف الوعي عن تفسير العلاقة بين الأبوة الدموية والأبوة القانونية، فهناك تكمن الحلقة المفقودة، وهذا يحيلنا إلى أن الأبوة القانونية تمكنت من ممارسة شرعيتها وتضليل الوعي حيث الاعتراف بالأبوتين هو في الحقيقة اعتراف ليس متكافئا، لأن الاعتراف بالأبوة الدموية مشوب بالإدانة، أما الاعتراف بالأبوة القانونية لا تشوبه شائبة وهنا وقعت أزمة الهوية اللاشعورية، حيث تثير فكرة الإدانة في حد ذاتها كثيرا من المتاعب النفسية، ولو تفطن الوعي إلى ماهية العلاقة بين الأبوة الدموية والأبوة القانونية وفسر تلك العلاقة تفسيرا موضوعيا لاستطاع – ربما - أن يتفطن لخبث الأبوة القانونية ويتمرد عليها، ويحقق استقلالية الهوية، ويتنكّر للاعتراف المزدوج الذي يخالف الفطرة وبذلك - على الأقل – يدرك هويته الحقيقية، متجاوزا شعور الالتباس وأزمة الهوية والوعي بالطفولة من حيث هي طفولة ضائعة، رغم أن الحقيقة تبقى نسبية وغير كافية لتخطي أزمة الهوية بدلالاتها المتباينة ومستوياتها الشعورية واللاشعورية المعقدة، ويبقى إبعاد الطفل وإقصاء انتمائه الدموي أوار أزمة هوية مزمنة، ذلك « أن إبعاد الطفل وإقصاءه يؤدي إلى حرمان الطفل من استحواذ هويته المتكاملة في مختلف المراحل العمرية المختلفة لحياته»[19].

قائمة المصادروالمراجع:

1 باشلار، غاستون. شاعرية أحلام اليقظة. ترجمة: جورج سعد. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1991 (م). ص 22.
2 واط، أيان.الأدب والواقع. ترجمة: عبد الجليل الأزدي. محمد معتصم. الطبعة الثانية. الجزائر: منشورات الاختلاف. ص 22.
3 الرويلي، ميجان. البازعي، سعد. دليل الناقد الأدبي. الطبعة الثالثة. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، 2002 (م). ص 321.
4 هوسرل، إدموند. فكرة الفينومينولوجيا. ترجمة: فتحي انقرو. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة، 2007 (م). ص 130.
5 بلخوجه، الطاهر. الحبيب بورقيبة. سيرة زعيم. الطبعة الأولى. القاهرة، مصر: الدار الثقافية للنشر، 1999(م). ص 13.
6 بلخوجه، الطاهر. المرجع السابق. ص 13.
7 بن عثمان، حسن. أطفال بورقيبة. د ط. بيروت، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2011 (م). ص 85.
8 المصدر نفسه. ص 78.
9 المصدر نفسه. ص ن.
10 الإمام، غادة. جاستون باشلار. جماليات الصورة. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: التنوير للطباعة والنشر، 2010 (م). ص 169.
11 المصدر نفسه. ص 90.
12 المصدر نفسه. ص ن.
13 المصدر نفسه. ص 104.
14 المصدر نفسه. ص 194.
15 المصدر نفسه. ص 195.
16 المصدر نفسه. ص 90.
17 المصدر نفسه. ص 195.
18 المصدر نفسه. ص 63.
19 ميكشيللي،أليكس. الهوية. ترجمة: علي وطفة. الطبعة الأولى. دمشق، سورية: دار الوسيم للخدمات الطباعية. 1993 (م). ص 76.

قائمة المصادروالمراجع:

أولا: المصادر:

1- بن عثمان، حسن. أطفال بورقيبة. د ط. بيروت، لبنان: التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2011 (م).

ثانيا: المراجع:

1- الإمام، غادة. جاستون باشلار. جماليات الصورة. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: التنوير للطباعة والنشر، 2010 (م).

2- باشلار، غاستون. شاعرية أحلام اليقظة. ترجمة: جورج سعد. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1991 (م).

3- بلخوجه، الطاهر. الحبيب بورقيبة. سيرة زعيم. الطبعة الأولى. القاهرة، مصر: الدار الثقافية للنشر، 1999(م).

4- الرويلي، ميجان. البازعي، سعد. دليل الناقد الأدبي. الطبعة الثالثة. الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي، 2002 (م).

5- ميكشيللي،أليكس. الهوية. ترجمة: علي وطفة. الطبعة الأولى. دمشق، سورية: دار الوسيم للخدمات الطباعية. 1993 (م).

6- هوسرل، إدموند. فكرة الفينومينولوجيا. ترجمة: فتحي انقرو. الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة، 2007 (م).

7- واط، أيان.الأدب والواقع. ترجمة: عبد الجليل الأزدي. محمد معتصم. الطبعة الثانية. الجزائر: منشورات الاختلاف، د.ت.